

الفصل الثامن

من حكمه

«كرم الله وجهه»

أنه خال عار، والجبن متقصّة، والفقر يخرس الفطن عن حجته، والمثقل غريب في بلده.

العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جنة، ونعم القرين الرضى.

العلم وراثه كريمة، والآداب حلل مجددة، والفكر مرآة صافية.
وروى أنه قال فى العبارة عن هذا المعنى أيضا: المسألة خباء العيوب،
ومن رضى عن نفسه كثر الساخط عليه.

الصدقة دواء منجع، وأعمال العباد فى عاجلهم، تُصب أعينهم فى
آجالهم.

اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم،
ويتنفس من خرم!!

إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه
سلبته محاسن نفسه.

حافظوا الناس مخالطة إن متم معها بكونا عليكم، وإن عشتم حتوا
إليكم.

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.
اعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من
ظفر به منهم.

وسئل عن الإيمان: فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر،
واليقين، والعدل، والاجتهاد. والصبر منها على أربع شعب: على

الشوق، والشفق^(١)، والزهد، والترقب؛ فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات؛ ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات؛ ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات؛ ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين. فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة؛ ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين. والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم؛ ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم؛ ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا. والجهد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشأن^(٢) الفاسقين؛ فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين؛ ومن صدق في المواطن قضى ما عليه؛ ومن شنئ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة. والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازل، والزيف، والشقاق؛ فمن تعمق لم ينب إلى الحق؛ ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماد عن الحق؛ ومن زاع ساءت عنده الحسنة، وحسنت عنده السيئة، وسكر سكر الضلالة؛ ومن شاق وعمرت عليه طرقه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه. والشك على أربع شعب: على التمازى^(٣)، والهول، والتردد، والاستسلام؛ فمن جعل المرء ديدنا لم يصبح ليله؛ ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه؛

(١) الغوف.

(٢) البغض.

(٣) التجادل لإظهار قوة الجدل لا لإحقاق الحق.

ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين؛ ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيهما.

طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضى عن الله.

سنة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك.

قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروءته، وشجاعته على قدر أنفته، وعفته على قدر غيرته.

احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالشورة.

الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.

القناعة مال لا ينفد.

قال الرضى: وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقل عليه السلام: قيمة كل امرئ ما يحسنه.

قال الرضى: وهى الكلمة التى لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة.

أوصيكم بخمس لوضربتم إليها آباط الإبل لكنت لذلك أهلاً: لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحيين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحيين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان كالرأس

من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه.
 لا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل
 كالتيدير، ولا كرم كالنقوى، ولا قرين كحسن الخلق، ولا ميراث
 كالآدب، ولا قائد كالنوفيق، ولا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح
 كالثواب، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزهد في الحرام،
 ولا علم كالشكر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر،
 ولا حسب كال تواضع، ولا شرف كالعلم، ولا عز كالخلم، ولا مظاهرة
 أوثق من المشاورة.

الهم بني! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشهورا،
 وإما خائفا مخمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته. وكم ذا وأين أولئك؟
 أولئك - والله - الأقلون عددا، والأعظمون عند الله قدرا. يحفظ الله
 بهم حججه وبيئاته، حتى يردعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب
 أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين،
 واستلوا^(١) ما استعوره^(٢) المترفون، وأنسوا بما اسنوحش منه الجاهلون،
 وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى. أولئك خلفاء الله
 في أرضه، والدعاة إلى دينه. آه آه شوقا إلى رؤيتهم! انصرفوا ياكميل إذا
 شئت.

المرء مخبوء تحت لسانه.

هملك امرؤ لم يعرف قدره.

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه:

(١) عنوا الشرى، لبنا

(٢) عده وعرا خشنا.

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجى التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراعين، إن أُعطي لم يشبع، وإن منع منها لم يفتن؛ يعجز عن شكر ما أوتي، ويتغنى الزيادة فيما بقى؛ ينهى ولا ينتهى، ويأمر بما لا يأتى؛ يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم؛ يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادماً، وإن صح أمن لاهياً؛ يعجب بنفسه إذا عوفى، ويقنط إذا ابتلى؛ إن أصابه بلاء دعا مضطراً، وإن ناله رخاء أعرض مغترّاً؛ تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن؛ يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله؛ إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط^(١) ووهن^(٢)؛ يقصر إذا عمل، ويبالغ إذا سأل؛ إن عرضت له شهوة أسلف^(٣) المعصية، وسوف^(٤) التوبة، وإن عرته محنة الفرج عن شرائط الملة. يصف العبرة ولا يعتبر، ويبالغ فى الموعظة ولا يتعظ؛ فهو بالقول مدل^(٥)، ومن العمل مقل، ينافس فيما يفنى، ويسامح فيما يبقى. يرى الغنى^(٦) مغرماً^(٧)، والغرم مغتماً؛ يخشى الموت، ولا يبادر القوت^(٨)؛ يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من

(١) من القنوط أى اليأس.

(٢) من الوهن أى الضعف.

(٣) سلف.

(٤) انخر.

(٥) أدل على أقرانه: استغنى عنهم.

(٦) الغنىمة.

(٧) المغرم: الغرامة.

(٨) قوت القرصة وانقضاؤه.

طاعته ما يحقره من طاعة غيره، فهو على الناس طاعن، ولنفسه مداهن؛ اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره؛ يرشد غيره ويغوي نفسه، فهو يطاع ويعصى، ويستوفى ولا يؤفى، ويخشى الخلق في غير ربه ولا يخشى ربه في خلقه.

قال الرضى: ولو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة، وحكمة بالغة، وبصيرة لمبصر، وعبرة لناظر مفكر. لا يعدم انصّور الظفر وإن طال به الزمان.

وسئل عليه السلام: أيهما أفضل: العدل، أو الجود؟ فقال عليه السلام: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يُخرجها من جُهجها، والعدل سانس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما. الناس أعداء ما جهلوا.

الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم».